

الطفل واكتساب اللغة بين البنائية والتوليدية

د. سعيد الفراع

مقدمة

عرف البحث اللغوي في العصر الحديث تطوراً مهماً، نتيجة انفتاح الدراسات اللسانية والنفسية والمعرفية المهمة باللغة على مرجعيات علمية دقيقة ومتطورة، مكنها من بلورة تصورات نظرية مختلفة حول طبيعة اللغة، والعوامل المتحكمة في اكتسابها وإنتاجها، وذلك بحكم طبيعة اللغة القائمة في أساسها على الاختلاف كما يقول «فيردناند دوسوسير»، وتعدد المستويات المشكلة لها (الصوتي والتركيبى والدلالي والنفسي والاجتماعي...)، وارتباط عملية إنتاج اللغة بسيرورات ذهنية ونفسية وعوامل فيزيولوجية ومؤثرات خارجية وتداولية، هذا بالإضافة إلى تعدد وظائف اللغة؛ من تواصل وتبليغ وإخبار وتقرير ووصف وتسجيل وتعبير فني وجمالي وغيرها من الوظائف. وبذلك شكلت اللغة كينونة الإنسان، فأصل اللغة ناتج من طبيعة الفرد الاجتماعية، ومن حاجته إلى التواصل مع الآخر، ومن ثم، فاللغة تجسد عند الفرد الرغبة في تحقيق نوع من التماهي مع الذات والذوبان بين الذات والآخر من جهة، وبين الذات والعالم الخارجي من جهة أخرى. ووفق تعبير جان بول سارتر «الإنسان هو اللغة، إن الإنسان هو أولاً ما يقوله»¹. وبذلك شكلت اللغة جسراً بيولوجياً ونفسياً حيويًا يربط الفرد بالمحيط، ويمدحه الاطمئنان النفسي والاجتماعي، والأمان في علاقته الخاصة والعامّة مع الآخر، والتعبير عن الإرادة الطبيعية في حق الوجود.

اتخذت من اللغة موضوعاً لها، ما أدى إلى وضع تعريفات متعددة للظاهرة اللغوية، بشكل يكشف عن الاختلاف الكبير في زوايا النظر والمرجعيات المتحكمة في تحديد اللغة وطبيعتها «الفلاسفة -مثلاً- يرون اللغة من زاوية اتصالها بالفكر، ومن ثم، فهي عندهم وسيلة نقله، وطريقة التعبير عنه. والمناطقة يدرسون قوانين الفكر وانعكاسها على اللغة. وعلماء الاجتماع يهتمون بالطبيعة الاجتماعية للغة ودورها

لقد قاد البحث في الطبيعة البشرية وخصائصها المميزة إلى التركيز على دور اللغة باعتبارها أكبر سمة تميز الكائن البشري عن باقي الكائنات الأخرى، هذا بالإضافة إلى علاقاتها المتشعبة بالإدراك والفكر والوعي واللاوعي والسلوك والعلاقات الاجتماعية والأيدولوجيا والسلطة وغيرها من العناصر. وهي كلها عوامل قادت إلى ظهور عدة دراسات واتجاهات لغوية ونفسية وسيكولسانية وفلسفية واجتماعية

نفسية تمكن الفرد من إنتاج عدد لامتناه من الجمل، وهي، من جهة ثانية، سلوك إنساني كباقي التصرفات النفسية، يستعملها الفرد المتكلم للتعبير عن واقع نفسي مثل الخوف والفرح والاضطراب، وغيرها من المشاعر والعواطف المتعددة. غير أن علماء النفس والدارسين الذين يستندون إلى مرجعية سيكولسانية يختلفون بعد ذلك حول ماهية هذه الطبيعة النفسية للغة:

« هل اللغة فطرية أم مكتسبة؟ وكيف ذلك؟
« كيف يكتسب الطفل اللغة؟ وكيف تتعلم؟ وما علاقتها
بباقي القدرات الإدراكية والتمثيلات الذهنية المصاحبة لها؟

هذه بعض الأسئلة التي تمتلئ بها الأدبيات السيكولسانية. ولما كان الوقوف على مختلف هذه الأدبيات يبدو أمراً يصعب إنجازه في هذا المقال، فإننا سنتوقف عند تصورين من أهم التصورات التي عاجلت مسألة اكتساب اللغة، وشكلت مرجعية للعديد من الدراسات السيكولسانية، يتعلق الأمر بالتصور البنائي أو التكويني (Constructivism) كما تبلور على يد «جان بياجيه»، والتصور التوليدي العقلاني عند «نعوم تشومسكي». فما هو تصور كل من المدرسة البنائية والمدرسة التوليديّة لمسألة اكتساب اللغة؟

1. التصور البنائي:

يندرج التفسير البنائي لطبيعة اللغة في إطار نظرية إبيستيمولوجية عامة تعرف بالإبيستيمولوجيا التكوينية (Epistémologie génétique) التي وضع أسسها العامة عالم النفس السويسري جان بياجيه (Jean Piaget)، فاللغة من منظور البنائية نشاط مثل باقي الأنشطة الإدراكية والفكرية والحركية عند الإنسان، وهو نشاط يتم بناؤه مثل باقي الأنشطة المعرفية عند الطفل عبر مراحل متتابعة. ومن هنا جاءت تسمية هذه المدرسة بالبنائية (Constructivism)، وبالتالي، فإن البنائية تهتم بالعمليات الإدراكية (Cognition) بمفهومها الشامل عند الفرد.

إن اللغة من منظور البنائية نشاط ذو صبغة إدراكية، يتم استخلاصه من مجرى تمثيلات لها عدد من الثوابت التي تشكل أساس بنية الذكاء ذاتها. وتتميز هذه الثوابت بخصيتين أساسيتين:

« الفردانية، أي أن كل فرد يبني عالمه الخاص من خلال

في قيام مجتمع ما، وفي تحديد أنماط علاقات أعضائه. وعلماء النفس تشغلهم زاوية تأثير اللغة على مجمل مظاهر التنظيم السلوكي والعمليات النفسية المختلفة كالإدراك والتفكير والذاكرة... إلخ»². وهذا الاختلاف في تعريف اللغة ساهم في إغناء البحث اللغوي، وكشف عن دور اللغة في بناء شخصية الإنسان، ونمو قدراته الذهنية والمعرفية والتواصلية وغيرها من الوظائف التي تضطلع بها اللغة. إلا أن المجال الذي ازدهر فيه البحث اللغوي سيتوزع بين مجالين علميين كبيرين، هما علم النفس واللسانيات، وما تفرع عنهما من دراسات سيكولسانية.

ويرجع اهتمام علم النفس باللغة إلى الأبحاث والأعمال التي أنجزها العالم النفسي الشهير «سيجموند فرويد» في دراسته للاشعور، حيث تعبر العناصر المكبوتة في هذه المنطقة المظلمة عن نفسها، من خلال فلتات اللسان والنكات، ويكون النشاط اللغوي في هاتين الحالتين خارجاً عن قواعد اللغة. وهي نظرة تعرضت لإعادة توجيه من قبل «جاك لاكان». فبينما كان فرويد يرى العقل الباطن منطقة مظلمة وفوضوية، اعتبره «لاكان» منطقة يحكمها نظام شبيه بنظام اللغة، وتمحور أنشطتها حول قطبي الكناية والاستعارة. كما ركز «لاكان» على نقطة تشكل شخصية الطفل فيما يسميها مرحلة المرأة، وهي مرحلة مرتبطة بدخوله عالم اللغة، حيث يغادر عالمه الوهمي المرتبط بجسد أمه، ليدخل عالم النظام الرمزي، الذي تلعب فيه اللغة دوراً مهماً، وتبدأ الشخصية بالتشكل. وستعمل العديد من الدراسات والأبحاث اللسانية المعاصرة على الاستفادة من أبحاث علم النفس في دراسة العديد من الظواهر والقضايا اللغوية، كما امتد الأمر إلى الاستفادة من نتائج الدراسات العصبية وتشريح الدماغ وباحاته ذات العلاقة بالذاكرة وإنتاج العناصر اللغوية، وهو ما مكن من تسليط الضوء على العديد من الظواهر اللسانية ومعرفة العناصر المتحركة فيها، بما يقود إلى فهم أفضل للطبيعة البشرية.

وتُختَصَرُ قضايا اللغة المتنوعة، سواء ما يتعلق منها باكتساب اللغة وتعلمها، أو إدراك معاني الجمل عند علماء النفس في إطار إشكالية أساسية تتمثل في الوقوف على الطبيعة النفسية لقضايا اللغة المتعلقة بالمعنى والدلالة، وما يرتبط بهما من إشكاليات تتعلق بإدراكهما ذهنيّاً أو عمليّاً. ففي الدراسات اللسانية، تعد اللغة نسقاً موضوعياً مبنياً، وهي في علم النفس اللساني واقعة نفسية، إذ يتفق علماء النفس المهتمون باللغة على أن اللغة ظاهرة نفسية بامتياز. فهي، من جهة، طاقة

« المونولوج.
« المونولوج الجماعي.

في الحالة الأولى، يعيد الطفل كلامه ويكرره حباً وتلذذاً بالكلام نفسه، من دون أن تكون هناك نية مقصودة في الكلام، أو دافع محدد له، أو أن يكون للطفل رغبة أو اهتمام بتوجيه الكلام لشخص آخر.

في الحالة الثانية، تصاحب كلام الطفل مجموعة من الحركات اليدوية لدعم الكلام وتقويته، وأحياناً لتعويض الكلام نفسه، وكأن الطفل في هذه المرحلة يتكلم وهو يفكر بصوت عالٍ.

في المرحلة الثالثة، يتشكل كلام الطفل من مجموع المواقف التي يكون فيها النشاط اللغوي مشتركاً بين مجموعة من الأطفال، بحيث يظهر الأطفال وهم يتكلمون فيما بينهم، إلا أنهم في الحقيقة لا يهتمون بأن يُسمعوا من قبل محاورهم من الأطفال.⁴

وقد طور بياجيه تصوره في موضوع اللغة عبر كتاباته العديدة

نشاط خاص به في تلاؤم مع العالم الخارجي.
« الكلية، باعتبار كل الأفراد العاديين يقومون ببناء هذه الثوابت. إلا أن هذه الكلية ليست مرادفة للفطرية كما يقول تشومسكي.

الطفل ومسألة اكتساب اللغة من منظور البنائية:

يقدم بياجيه تفسيراً بنائياً للغة عند الطفل، من خلال التأكيد على أنها تُبنى عبر مراحل متعددة قبل أن تكتمل، وفي هذا الصدد، يميز بين نوعين من اللغة:³

« اللغة المتمركزة حول الذات (Langage égoцентриque).
« اللغة الاجتماعية (Language social)، وهي التي تمثل مستوى اللغة المكتملة عند الفرد الواعي لما يقول، حيث يدور الحوار في سياق عادي.

بالنسبة إلى اللغة المتمركزة حول الذات، وهو مستوى اللغة عند الطفل، يميز بياجيه بين ثلاثة أصناف من الكلام:

« التردد أو مرحلة المناغاة.



من أحد لقاءات مشروع «وتكون قيبا» ضمن مسار التكون المهني.

نجد في أبحاث تشومسكي العقلانية التوليدية. إن تصور بياجيه ومدرسته قائم على انسجام بين المادي الموضوعي والذهني الضمني وتفاعلهما. إن الظواهر النفسية، ومنها اللغة عند الطفل، ليست معطيات مادية أو تصورية قائمة بذاتها، ومهيأة كاملة وتامة ومستقلة بنفسها ومنغلقة، بل إن الظاهرة الواحدة هي نتيجة تكوين وبناء تدريجي، يتم عبر مراحل تتفاعل فيما بينها وتتكامل في توافق تام، واتساق مع تكوين وبناء ملكات ذهنية وفكرية أخرى عند الطفل. وتحدد وظيفة اللغة الأساس بالنسبة لبياجيه في التمثيل.

إن اللغة عند الطفل من منظور بياجيه هي أولاً بناء يتم ببطء، وفي مراحل تكون مرتبطة بمراحل نمو مدارك معرفية وتصورية أخرى لا تقل أهمية عن اللغة، تتكامل وتتفاعل مع الملكة اللغوية، أي أن عملية اكتساب اللغة وتعلمها ترتبط بمراحل النمو الذهني والجسماني عند الطفل. إن تكوين البنيات الإدراكية عند الطفل يكون بمثابة تكوين الوظيفة الدلالية التي ربطها بثوابت أخرى (تكوين المفاهيم - الصيغ الحركية - الصور...)، ويشكل الكل ما يسميها بياجيه الوظيفة الرمزية أو السيميائية (Symbolique / Sémiotique)، وهي الطاقة التي تمثل أنشطة التمثيل برمتها عند الطفل (صور/ إشارات) أي تركيب العلامات واستعمالها.⁷

وتظهر الوظيفة السيميائية في المرحلة الحسية الحركية (Sensori- Motrice) عند الطفل ابتداءً من الشهر الثامن عشر. وتتمظهر في سلوكيات مختلفة:

- « التقليد المحول (Imitation Transférée)، أي قدرة الطفل على تقليد شيء ما في غياب هذا الشيء، وهو ما يعكس قدرة الطفل منذ سن مبكرة على تصور وجود مسافة بين الدال والمرجع.
- « التخيل، حيث يلاحظ قدرة الطفل الواعية والمقصودة على إسناد معانٍ جديدة إلى معانٍ معروفة.
- « الرسم.
- « الصور الذهنية.
- « القدرة على التذكر.
- « اللغة باعتبارها نشاطاً ضمن أنشطة أخرى وظيفتها تقديم معلومات عن أشياء غائبة.⁸

وبخصوص قضية التمثيل الدلالي لدى الأطفال عند بياجيه، فقد بلورها في إطار نظريته القائلة إن المعرفة تسبق اللغة، وإن

التي دامت عدة عقود من الزمن. ويمكن القول إن التصور البنائي للغة يقوم على مبدئين أساسيين:

أولاً: ليست اللغة هي السمة المميزة للإنسان عن غيره من الكائنات، كما يقول بذلك تشومسكي والتوليدون العقلانيون، بل إن هناك شيئاً أكثر عمومية من اللغة ذاتها عند الإنسان. إن الكائن البشري يملك ما يسميها بياجيه طاقة إدراكية عليا (Capacité cognitive supérieure) التي تجعل الفكر التمثلي عنده أمراً ممكناً.

ثانياً: إن اللغة ليست سوى جزء من التظاهرة الرمزية العامة التي يعدها الإنسان، في إطار تفاعله مع المحيط الطبيعي والاجتماعي الذي يعيش فيه. إن توظيف هذه الرمزية (ومنها اللغة) يكون نتيجة استعمال الإنسان لهذه الطاقة الإدراكية العليا.⁵

ويرفض بياجيه افتراض تشومسكي المتعلق بالفطرية؛ لأن وجود نظام قبلي أو بنيات فطرية أولية بحسب بياجيه، لا يسمح بتفسير عملية اكتساب اللغة عند الطفل تفسيراً معقولاً وواقعياً. إن اكتساب اللغة لا يتم دفعة واحدة كما توحي بذلك فكرة البنية الجاهزة عند تشومسكي. إن اللغة ليست جهازاً قائماً بذاته؛ لأن كل جهاز يعني الاكتفاء بذاته، وهو ما لا نلاحظه في عملية اكتساب اللغة. وحتى لو تم التسليم بوجود هذا الجهاز، فإن ذلك يتطلب الكثير من الوقت أو مراحل معينة من النضج الفكري عند الفرد حتى يتمكن من استعمال هذا الجهاز.⁶

وتشكل مسألة اكتساب اللغة عند الطفل من منظور بياجيه مظهراً من مظاهر التعلم المعرفي العام لديه، أو كواقعة نفسية مستقلة وقائمة بنفسها، أو من خلال إدراك التمثيل النفسي لقضايا المعنى والدلالة، من خلال عملية اكتسابه للتصورات ونظريات اكتساب اللغة شغلت العديد من المدارس والنظريات، فمع البنائية، وخاصة عند بياجيه، احتلت مسألة اكتساب اللغة حيزاً مهماً، خاصة في علاقتها بالنمو الذهني والفكري العام لدى الطفل، وذلك عن طريق الملاءمة بين المعطى المعرفي عند الإنسان والمحيط المادي الذي يتبلور فيه هذا المعطى، وهي بذلك تجمع بين ما هو بيولوجي وما هو سلوكي لديه. فببياجيه يرفض من جهة الهيمنة المطلقة للبيئة وحدها في تشكيل الظواهر النفسية وتطورها، كما تقول بذلك السلوكية، وهو من جهة ثانية يرفض القول بالبنيات المعرفية المعدة سلفاً، مثلما

الأساس الدلالي، فعملية بناء العلامات اللفظية عادةً ما تكون مشروطة بالاندماج الاجتماعي للطفل»¹⁰.

2. التصور التوليدي العقلاني:

في مقابل التصور البنائي للغة، عملت التوليدية على بلورة تصورات مغايرة لما طرحه بياجيه حول طبيعة اللغة وكيفية اكتسابها من قبل الطفل، كما وجهت انتقادات للمدرسة السلوكية، بحكم قصورها في فهم الكثير من الأسرار التي تتضمنها العملية اللغوية، فاللغة ليست دائماً مثيراً واستجابة، فهي جهاز معقد يستحيل اختصاره في هذه الثنائية، المستندة إلى التكرار والتقليد والتعزيز. فاللغة من منظور التوليدية «تحمل لنا معلومات ثمينة عن عقلية المتكلم والسماع وحالتها النفسية والاجتماعية والفكرية، وهو ما لا يمكن للمثيرات والاستجابات المتعددة أن تنقله إلينا، أو نقوم باستخلاصها منها. إن السلوكية تسلب الإنسان خصائص ماهيته ووجوده، المتمثلة في العقل والإبداع وحرية الإرادة والتحكم في التصرف»¹¹.

ويندرج المنظور التوليدي للغة في إطار التصور العقلاني المضاد للتجريبية المادية في أشكالها المختلفة، ويستمد الموقف العقلاني المعاصر جذوره الأولى من الفلاسفة العقلانيين في القرن السابع عشر، أمثال رينيه ديكارت (René Descartes) وغوتفريد لايبنتز (Gottfried Leibniz). ومن أبرز ممثلي العقلانية في اللسانيات الحديثة اللساني الأميركي نعوم تشومسكي (Noam Avraham Chomsky) صاحب النظرية اللسانية المعروفة بالنحو التوليدي. لقد قاد تشومسكي ثورة علمية فعلية نجم عنها بروز إبدال جديد للتفكير في اللغة، أفرز مجموعة من الإشكالات يجب أن يعتني بها اللغوي، وضمنها الاهتمام بالجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين، عوض الاهتمام بسلوكهم الفعل - لغوي.

وتتحدد محاور البحث حول الظاهرة اللغوية في إطار البرنامج التوليدي فيما يلي:¹²

- أ . تحديد طبيعة اللغة البشرية.
- ب . طبيعة تعلم اللغة باختيار نموذج نحوي معين.
- ت . مفهوم النحو كمجموعة من القواعد القائمة في الذهن في صورة ملكة بيولوجية، وعلى اللسانيات أن تُعنى بتصويرها وصوغها في إطار نموذج صوري.

اللغة تخضع خضوعاً مطلقاً للفكر، واستدل على ذلك بأن التجربة الأولى للطفل تجربة حسية حركية، تفضي إلى اكتسابه القدرة تدريجياً على التكيف مع المحيط. وفي هذه المرحلة السابقة للكلام، تنشأ لديه الوظيفة التصورية، وتتجلى في إضافته على الأشياء المحيطة به دلالة خيالية كاستخدام قطعة من الخشب على أنها سيارة، أو اتخاذ الكرسي فرساً، لا لكونه يجهل الوظائف الحقيقية لمثل تلك الأشياء، بل رغبة منه في تحويلها إلى رموز، أي إلى دوال لها دلالات خاصة. وهذه الوظيفة التصورية أو الرمزية ضرورية في هذه المرحلة، لأنها تؤهل الطفل إلى اكتساب اللغة؛ ما دامت اللغة الإنسانية الطبيعية نظاماً من العلامات أي الرموز. ويرى بياجيه أن اكتساب الوظيفة الرمزية يمر بمرحلتين: الأولى مرحلة ارتقاء نفسي فردي؛ تشكل تصورات الطفل خلالها ضرباً من المحاكاة المستدجبة، والثانية مرحلة اندماج اجتماعي ترتقي فيها تلك التصورات إلى مستوى تجريدي كاف، يسمح باستعمال اللغة الإنسانية الطبيعية.⁹

غير أن حصر الجانب المعرفي في التكيف الفردي مع المحيط وإلغاء دور الثقافة الاجتماعية بمفهومها الواسع، أي المعرفة الناشئة عن تشكل الكائن البيولوجي بوساطة البيئة، التي يهيئها النوع ويحافظ على استمرارها، من شأنهما وسم هذه النظرية بالتبسيط المغالي فيه لظاهرة بالغة التعقيد.

إن اكتساب الطفل للمعنى يمر بمراحل توافق فترات محددة من ترقية النفسي والذهني، فخلال الأيام الأولى بعد الولادة، يكون تمثل المعنى تمثلاً حسيّاً بحتاً. حيث يكون معنى الشيء هو الشيء نفسه. ثم يؤدي النمو الحسي الحركي إلى اكتساب ضرب جديد من التمثل، هو التمثل الإدراكي الذي يقوم على تحويل الشيء إلى صورة. ثم في مرحلة ثالثة، يصبح التمثل تصورياً بإضافة دلالات رمزية على الأشياء. وهذه الوظيفة التصورية تؤهل الطفل إلى اكتساب لغة الكبار. ويتحقق التمثل الدلالي لدى الطفل في مرحلة اكتساب اللغة تدريجياً، من خلال امتلاك القدرة على التخلص من آلية ربط المعنى بالمقام، وعلى ملء المخططات بالمقولات الممكنة المناسبة.

يشكل إلغاء البعد الاجتماعي في بناء التمثلات الدلالية في سيرورة اكتساب الطفل للغة، الجانب الذي ارتكزت عليه الانتقادات الموجهة إلى بياجيه، «فتركيزه على إنشاء الصور لا يمثل، في اعتقادنا، النهج الصحيح في مجال توضيح العلاقات المتبادلة بين الصور ذات الأساس الصوتي والصور ذات

(Innéisme)، أي الوجود الأولي للأفكار والبنىات المعرفية، ومنها البنىات اللغوية عند الإنسان. فالإنسان دون غيره من الكائنات الحية يولد مزوداً ببنية لغوية، وهي معرفة أولية مستقلة عن أي بيئة، تجعله قادراً على اللغة من دون تعلم خاص. والقول بالفطرية يعني، أيضاً، الاستعداد البيولوجي الخاص عند الإنسان للكلام أو اللغو، مثلما يلاحظ استعداد خاص للقدرة على الطيران عند الطيور، أو العيش تحت الماء بالنسبة إلى الكائنات المائية. فقدرة هذه الكائنات على القيام بهذا النوع من السلوكات التي تنفرد بها تتم على أساس استعداد قبلي؛ من دون تعلم يُذكر أو تدخل المحيط. ويؤكد التوليديون الطابع الإبداعي للغة، فكل متكلم يكون قادراً انطلاقاً من مواد لغوية محدودة، على إنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل، وهي جمل لم يسبق له أن أنتجها أو فهمها من قبل. كما تؤكد التوليدية مبدأ استقلال اللغة عن الذكاء؛ أي عدم وجود أي علاقة عضوية أو وظيفية بين مستوى ذكاء المتكلم وقدرته على اكتساب اللغة واستعمالها. فأغبي إنسان يتكلم، وأذكي الحيوانات لا تستطيع ذلك.

إن اللغة من منظور التوليديين ليست سلوكاً تجريبياً، يكتسبه الطفل نتيجة لما يقدمه المحيط من مؤثرات خارجية، أو نتيجة لتقليد العبارات اللغوية المستعملة التي يسمعها الطفل، بل إنها صفة بيولوجية ملازمة للإنسان، يتميز بها عن غيره من الكائنات الحية. ويرى التوليديون أن المحيط لا يملك أي بنية متجانسة أو أساسية، تجعله قادراً على إكساب الطفل نظاماً

ث . العلاقة بين النحو الخاص (قواعد لغة خاصة) والنحو الكلي (الثوابت المشترك فيها من طرف كافة لغات البشر).

ج . علاقة الملكة اللغوية ببقية الملكات الذهنية، أي ما يدعى في الأدبيات اللسانية المعاصرة بالقلبية، فالذهن مكون من مجموعة قوالب متفاعلة أثناء الإنجاز اللغوي، من بينها: قالب النحو، وقالب الاعتقادات والاقتضاءات التي يحملها الإنسان عن العالم، وقالب تداولي.

ح . العلاقة بين المعطيات التجريبية وبين فرضيات العمل في استخلاص وصياغة الملكة، فالنظرية اللسانية تقيد الشواهد اللسانية بوضع شروط عليها حتى تدمج في الاستدلال اللساني.

خ . إنشاء جهاز مفهومي بصوري لصياغة الملكة: كافتراض البنية العميقة والبنية السطحية والتحويلات.

د . تفسير العلاقة القائمة والممكنة بين الملكة اللغوية والوعي الفعلي، مع إفراز أوصاف لسانية مضبوطة للمفاهيم النظرية، كالحدس اللغوي والحكم النحوي والمقبولية.

اكتساب اللغة من منظور المدرسة التوليدية:

يرفض التوليديون أطروحة السلوكيين القائلة إن الإنسان يولد صفحة بيضاء، وإن المحيط الخارجي هو الذي يكسبه هذه اللغة في إطار ثنائية المثير والاستجابة عن طريق التجربة، أو عن طريق التعلم. يختلف توجهاته وطرائقه. ومقابل هذا التصور التجريبي، يؤكد التوليديون فرضية ما يعرف بالفطرية



من إحدى ورش العمل ضمن مسار إحياء الدمى في التعليم.

معقداً في مستوى اللغة البشرية. وليست هنالك قوانين خارجية للاكتساب اللغوي عند الطفل، بل تأتي كل القوانين من داخل البنية المعرفية عموماً واللسانية خصوصاً. ومعنى هذا أن كل بنية أولية مرتبطة بالإدراك، سواء كانت من مصدر بيولوجي أو لساني، فهي مفروضة من الجهاز نفسه (الاستعداد الأولي للكلام) على المحيط وليس العكس.

إن خصوصية اللغة عند الإنسان تتمثل في كونها خاصة بالجنس البشري، وهو ما يؤكد ضرورة افتراض وجود الاستعداد الأولي للفعل الكلامي بوصفه صفة بيولوجية ملازمة للإنسان، بل يمكن افتراض، بحسب التصور التوليدي العقلاني، أن اللغات الطبيعية مهما اختلفت بنياتها الصوتية والتركيبية والدلالية، فإنها تمتلك صفات وقواسم مشتركة يطلق عليها الكليات اللغوية (Les universaux linguistiques)، والكليات نوعان: مادية وصورية.

تتمثل الكليات المادية في كون اللغات البشرية تشترك في بعض الأصوات اللغوية، من حيث هي مادة، وفي بعض الخصائص المميزة بينها، مثل الشفوية والانفجارية والاحتكاكية. وفي مستوى التركيب، يلاحظ أن كل اللغات تتوافر فيها جملة من المقولات، مثل الفعلية والاسمية والحرفية والوصفية. وفي مستوى المدلول، يلاحظ اشتراك اللغات البشرية في مجموعة من الخصائص التصورية، المتعلقة بدلالة كثير من مفردات المعجم أو برؤيا دلالية عامة، مثل المفعولية والغاية والحدث والفاعلية والنسبة وغيرها.

أما الكليات الصورية، فتتجلى في كون اللغات البشرية تعرف عدداً مشتركاً من المبادئ الصورية العامة المتعلقة بتنظيم اللغات من الناحية الشكلية، سواء في مستوى الدلالة، أو مستوى التركيب.

وفي هذا السياق، يميز تشومسكي بين الملكة والأداء، فالملكة (La compétence) هي المعرفة اللاواعية والضمنية بقواعد اللغة، التي يكتسبها المتكلم منذ طفولته وتبقى راسخة في ذهنه، وتمكنه من إنتاج عدد لا محدود من الجمل الجديدة إنتاجاً ابتكارياً، لا مجرد تقليد ثابت. إن هذه الملكة تتجسد في الواقع اللساني المادي من خلال المظهر الكلامي المعروف بالأداء (La performance) باعتباره الاستعمال الفعال للغة في مواقف تواصلية محددة، وإبرازاً للملكة وإخراجها من حيزها اللاشعوري إلى حيزها الإدراكي الفعال في وضعيات تواصلية

لملموسة. ولهذا يتأثر الأداء بالعوامل الخارجية مثل الظروف الاجتماعية والنفسية (كضعف الذاكرة، والتعب، والخوف، ودرجة الاهتمام بالموضوع وغيرها). ولذلك يختلف الأداء من شخص إلى آخر باختلاف هذه العوامل. أما الملكة، فهي عامة ومشتركة بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد. وتعتبر الملكة أهم قدرة يمتلكها الإنسان وتميزه عن غيره من الكائنات، وتسقط عنه صفة الآلية والحيوانية المجردة من التفكير والإبداع، وتيسر له الإنتاج اللانهائي من الجمل وفهمها.

وبذلك يتضح أن النظرية التوليدية تبنى مفهوماً عقلياً للمعرفة العلمية، ولا تمنح الأولوية للمحيط الخارجي في مسألة تعلم اللغة، فالقوانين والمبادئ العامة المتحكمة في تعلم اللغات هي مبادئ داخلية، أي تأتي من البنية الداخلية للعقل الإنساني نفسه. هذا الموقف لا يعني إطلاقاً إنكار أهمية المحيط ودوره في تعلم اللغة واكتسابها، ولكن يعني أن دور المحيط ثانوي، إذ لا بد من الاستعداد الأولي للكلام، أي القدرة على استعمال اللغة، ليقوم المحيط بدوره التفاعلي في بلورة هذا الاستعداد، وليس العكس كما يقول التجريبيون الذين يعتبرون أن المحيط هو الذي يمد الفرد بهذه اللغة، أو أن المحيط هو مصدر كل ما لدى الطفل من المهارات اللغوية عن طريق التجربة (الاحتكاك، وتقليد الكبار، والقياس).

وأمام الانتقاد الذي وجهه بعض الباحثين للفطرة اللغوية، باعتبارها معجزة غير منتظمة، أجاب تشومسكي بالتساؤل عن الأسباب التي تجعل العنكبوت قادراً دون سواه، على نسج بيته بهذه الكيفية التي تبدو لنا جد مثيرة ومعقدة. إن سبب قدرة العنكبوت يرجع بالدرجة الأولى إلى الفطرة وحدها، أي الاستعداد الأولي الموجود لدى العنكبوت من دون غيره من الكائنات، ويتم هذا من دون تعلم أو تدخل من المحيط أو البيئة.

إن التكوين الفطري للطفل ينطوي في نظر أقطاب المدرسة التوليدية على جهاز تتجسد فيه نظرية لسانية معقدة، وأن هذا الجهاز هو الذي يمكن الطفل من تحليل الأصوات اللغوية، ومن التعبير بعد ذلك عن لغة ثقافته الأصلية، ثم الوصول أخيراً إلى تأويلها والقدرة على استعمالها. إن الطفل في منظور هذه المدرسة، هو الذي ينشئ التميزات، ويستخدم الفرضيات بفعل النظرية اللسانية المعقدة التي يتوفر عليها. وبذلك شكل تحليل وتوضيح الخاصية الإبداعية لسلوك المتعلم الموضوع الأساسي لهذه المدرسة، وهي الخاصية التي أهملتها الاتجاهات البنائية والسلوكية.

تعرضت النظرية التوليدية حول الاكتساب اللغوي إلى انتقادات متعددة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- أ. إن الملكة الإبداعية لدى المتكلم الأصلي باللغة (وهي قدرته على إنشاء جمل لم يسمعها من قبل أو فهمها) ليست خاصة باللغة، بل هي صفة من صفات الجهاز البيولوجي للكائن البشري القادر على القيام بعدة حركات لم يقم بها.
- ب. إن النضج العضوي للدماغ وجهاز إصدار الأصوات، وإن كان شرطاً أساسياً لاكتساب القدرة على الكلام، فلا يعني بالضرورة أن اللغة فطرية، بل ثمة استعداد لاكتسابها. وهذا الاكتساب لا يتحقق إلا بالتفاعل مع البيئة التي يولد فيها الطفل.
- ج. إن القول إن الطفل يمتلك جهازاً فطرياً في الاكتساب، وإنه يمتلك نظرية لغوية معقدة يطبقها على لغة بيئته، لا يستند إلى أدلة واقعية. وهو ما يكون أشبه بالقول إن الطائر يمتلك نظرية في بناء العش، وإنه يطبق طريقة الفرضيات في اختيار المواد التي يستخدمها في بنائه.¹⁵

وهي انتقادات جعلت العديد من الباحثين يعتبرون اللغة مكتسبة لا فطرية، وأن تمثل الطفل للمعنى يخضع لنموه الذهني في علاقته بالسياق والبيئة التي ينشأ فيها.

خاتمة

تتضح من خلال ما سبق مظاهر الاختلاف بين المدرستين البنائية والتوليدية حول طبيعة اللغة وكيفية اكتسابها من قبل الطفل، وهو اختلاف نابع من طبيعة الخلفية المعرفية المؤطرة لتصورات المدرستين كليهما. ففي الوقت الذي تؤكد فيه المدرسة البنائية أن اللغة هي نشاط ذو صبغة إدراكية، مثله مثل باقي الأنشطة الإدراكية والفكرية والحركية، وأن اللغة ليست هي السمة المميزة للإنسان عن غيره من الكائنات، وأنها مرتبطة بطاقة إدراكية عليا يمتلكها. وهو تصور يعارض ما ذهب إليه تشومسكي المتعلق بالفطرية؛ لأن وجود نظام فطري أولي بحسب بياجي، لا يسمح بتفسير عملية اكتساب اللغة عند الطفل تفسيراً معقولاً وواقعياً، وأن اللغة ليست جهازاً قائماً بذاته، ولهذا دعا بياجي إلى الملاءمة بين المعطى المعرفي عند الإنسان والمحيط المادي الذي يتبلور فيه هذا المعطى، لتفسير عملية اكتساب اللغة عند الطفل، لأنها عملية تجمع بين ما هو بيولوجي وما

يميز تشومسكي في نموذج التوليدية بين مستويين اثنين: يتعلق أولهما بقواعد الاستكتاب التي تتولد عنها سلاسل الصيغ التامة. ويرتبط ثانيهما بقواعد التحويل التي تلعب الدور الرئيسي في تحديد البنى السطحية. وإذا كانت قواعد المستوى الأول تعبر عن شبكة التداخل بين أجزاء الخطاب نظراً لاستقلالها عن السياق، فإن قواعد المستوى الثاني، وبفعل ارتباطها بالسياق، غالباً ما تساعد على تحديد الكفاءة الإبداعية للمتكلم. وبذلك يتضح أن النموذج اللساني الذي وضعه تشومسكي، يركز بالدرجة الأولى على كفاءة المتكلم، بمعنى على قدرته الذاتية لإنتاج الملفوظات وفهمها. وبالتالي، فإن إغفاله بعض العوامل غير اللسانية من النمط التشريحي والفيزيولوجي والسيكولوجي هو الذي أدى به إلى الوقوف عند حدود الكفاءة عوض توظيف هذه الأخيرة في وصف الأداء اللغوي وتحليله.¹³

إن فكرة كونية النحو تعد مكوناً أساسياً لنظرية التعلم البشري، ما دامت ترى أن كل طفل يولد وهو مزود بقواعد عامة، تساعد على فهم لغته الأم، وعلى إنتاج الجمل الجديدة دونما تقليد. وبذلك صارت الدراسات اللغوية تهتم بالأسس البيولوجية والعصبية والعضوية المسؤولة عن إنتاج أو فهم الكلام، وإن كانت نتائجها لا تزال غامضة ومعقدة، لأن اللغة عملية توليدية فعالة في ذهن البشري، قادرة على الخلق والإبداع من خلال قانون نحوي عام يشمل كافة اللغات البشرية. وتقوم طريقة اكتساب الطفل للغة، حسب تشومسكي، على الفرضيات، فإذا سمع اسماً يعرفه مثل «ماما» أو «بابا»، فإنه يفترض أن الكلمة التي تليه فعل أو صفة لا اسم. ويهتدي إلى الفرضية الصحيحة كلما تبين له أن فرضيته الأولى خاطئة. وهكذا، فإنه يستعمل قواعد خاصة به يعدلها باستمرار إلى أن توافق القواعد التي تحكم لغة الكبار. ولقد سعى «ماك نيل» (Mc Neill) إلى تدقيق هذه النظرية والتوسع فيها، فذهب إلى أن التمثل الدلالي لدى الطفل، يتحقق على ثلاث مراحل: في الأولى يتشكل لديه معجم أحادي اللفظ، تؤدي الكلمة فيه معنى جملة كاملة نحو «ماء» أي «أريد ماء». وفي الثانية يتحول ذلك المعجم تدريجياً إلى معجم للجمل التامة بملء الفراغات داخل الجمل المختزلة. وفي الثالثة ينشأ لديه معجم للمفردات يكون للمفردة فيه معنى مستقل. وهذا المعنى يمر هو نفسه بمرحلتين: في الأولى تكون دلالاته ذاتية خاصة بالطفل فرداً، وفي الثانية يستقر المعنى على هيئته التي هو عليها في لغة الكبار.¹⁴

مدى إدراكه للتعقيد التحويلي لهذا الملفوظ.

ويتجه البحث اللغوي في مجال علم النفس المعاصر إلى التركيز على الذاكرة الإنسانية واللغوية بشكل خاص، باعتبارها عنصراً أساسياً في مختلف الوضعيات والمهام ذات الصلة بطرائق معالجة المعلومات وتخزينها، وبأنماط التفكير وسيروراته، وكيفية التعرف على الكون والحياة. وتتوزع الذاكرة على أشكال متعددة، تبدأ «بالذاكرة القصيرة المدى ذات القدرة المحدودة على الاحتفاظ بالمعلومات، والذاكرة العاملة التي تكون النسخة الحديثة لهذه الأخيرة، وتضم الذكريات اللفظية والبصرية والتنبيهية، وأخيراً هناك الذاكرة البعيدة المدى ذات القدرة الهائلة على تخزين المعلومات والاحتفاظ بها بصورة منظمة».¹⁶

وتشكل الذاكرة المعجمية محور اهتمام وتقاطع عدد من العلوم المعرفية، في مقدمتها السيكلوجيا المعرفية والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب واللسانيات، ما يمكن من بلورة نماذج متعددة لمقاربة بنيتها وطبيعة تنظيمها وآليات اشتغالها، تمكن من إعداد نماذج التعليم واستكشاف سيرورة الاكتساب. وهي دراسات فتحت الباب واسعاً أمام آفاق البحث في مجالات ترتبط بطبيعة اللغة وكيفية اكتسابها وعلاقتها بباقي القدرات الإدراكية الأخرى.

باحث من المغرب

هو سلوكي لديه. بينما يذهب التوليديون، وعلى رأسهم تشومسكي، إلى التأكيد على الطابع الفطري للظاهرة اللغوية عند الإنسان، باعتبارها ملكة تميزه عن باقي الكائنات الأخرى، مستندين في ذلك إلى نزعة عقلانية تعتبر اللغة صفة بيولوجية ملازمة للإنسان، وليست سلوكاً تجريبياً، يكتسبه الطفل نتيجة لما يقدمه المحيط من مؤثرات خارجية. وتعرضت المدرستان في تصوراتهما للغة وكيفية اكتسابها إلى العديد من الانتقادات والتعديلات، وذلك في إطار الموجة الثالثة لعلم النفس اللساني، وهي الموجة التي تتداخل فيها جميع التصورات المتأثرة بأعمال بياجيه حول اكتساب اللغة، وأعمال تشومسكي عن النحو التوليدي. ويمكن اختصار هذه التصورات في أطروحتين: تتجلى أولاهما في الأعمال السيكلوسانية لأنصار النظرية التوليدية أمثال: مكنيل (MC Neil. D) وفودور (A. Fodor) وجاريت (F. Garrett). مؤدى هذه الأطروحة هو أن التعارض بين البنية السطحية والبنية العميقة للجملة يفضي إلى الرفع من درجة التعقيد في الآلية الأدائية، وبالتالي إلى صعوبة فهم الجملة وإنتاجها. وقد استلزم التحقق من مضامين هذه الأطروحة إنجاز عدة أعمال، وفي مقدمتها الدراسات التجريبية لتحليل صعوبات تذكر الجمل البسيطة والمركبة وفهمها. ومن أهم النتائج التي تؤكد عليها هذه الدراسات عدم التطابق بين التعقيد التحويلي والتعقيد الأدائي، حيث إن الأداء اللغوي يشترط أساساً مدى إدراك المتكلم لخصائص الوضعية التي يرتبط بها الملفوظ أكثر من

الهوامش

¹ Sartre J.P, L'être et le néant, Gallimard, 1976, paris, p 400.

² محسب محبي الدين: انفتاح السق اللساني، دراسة في الداخل الاختصاصي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008، ص 14.

³ Piaget Jean, Le langage et la pensée chez l'enfant, Editions Denoël et Gonthier, 4^{ème} Edition, Paris, 1984, p 24.

⁴ غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص 37.

⁵ Leif Joseph , Le langage, nature et acquisition, Editions ESF, Paris, 1981, p 33 - 34.

⁶ Piattelli- Palmarini, Théories du langage et apprentissage des langues (débat entre Chomsky et Piaget) Aux éditions du Seuil, paris, 1979.

⁷ Piaget .J, 1984, op. cit , p 26.

⁸ غلفان مصطفى: في اللسانيات العامة، م س، ص 38 39.

⁹ مارك ريشل: اكتساب اللغة، ترجمة بكداش كمال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص 146 - 147.

¹⁰ الغالي، أحرشواو. (1993). الطفل واللغة (تأثير نظري ومهجي). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الكتاب الأول، ص 34-35.

¹¹ غلفان، مصطفى. (2010). في اللسانيات العامة. م س، ص 32.

¹² الملاح، محمد. (2004). «إبستمولوجيا اللسانيات، نماذج نظريات». مجلة فكر ونقد، (المغرب)، العدد 58/ أبريل، ص 38-39.

¹³ أحرشواو الغالي. 1993، الطفل واللغة، مرجع سبق ذكره، ص 82.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 78 - 79.

¹⁵ مارك ريشل: اكتساب اللغة، م س، ص 20 - 21. وللاطلاع على المزيد من الانتقادات الموجهة للمدرسة التوليدية، يمكن الرجوع لكتاب الطفل واللغة للأستاذ الغالي أحرشواو.

¹⁶ أحرشواو الغالي في تقديم كتاب الذاكرة واللغة لرغوبش بنعيسى، جدارا للكتاب العالمي، عمان/ الأردن، وعالم الكتب الحديث، إربد/ الأردن، 2008، ص 1.